موسوعة الغناء النسائي الشعبي في فلسطين
(أنموذجا للتجارب الحديثة في توثيق التراث الموسيقي العربي الشعبي)

د. معتصم خضر عديلة(فلسطين)

مقدمـــة

سيقوم الباحث من خلال هذه الدراسة بعرض لتجربته في توثيق التراث الموسيقي العربي الفلسطيني الشعبي، وذلك من خلال عرضه لموسوعة الغناء النسائي الشعبي في فلسطين، والتي قام بإنجازها على مدار ثلاثة أعوام من العمل المتواصل، قام خلالها بجمع وتدوين ودراسة ما يقارب ١٠٠٠ أغنية نسائية شعبية تختص في المجتمع الفلسطيني، حيث دوّنها شعريا وموسيقيا (نصها الشعري، ثم خطها اللحني)، كما وقام بإجراء دراسة تحليلية علمية للجوانب اللحنية والإيقاعية والبنائية والأدائية لكل خط لحني لهذه الأغاني، وذلك لتحديد الخصائص الفنية الموسيقية التي تتضمنها هذه الأغنيات، كما وتناول أيضا أبعادها الإثنية المختلفة بالدراسة والتحليل. وجاءت الموسوعة بشكلها النهائي بما يقارب ٢٠٠٠ صفحة.

- **الخطة البحثية لموسوعة الغناء النسائي الشعبي في فلسطين:**

يعتبر الغناء من أقرب الفنون الى النفس البشرية، لما يمتلك من إمكانيات كبيرة في التعبير عن أحاسيس ووجدان كافة أفراد المجتمع، بالإضافة الى مقدرته على تجسيد فكرهم وفلسفتهم تجاه الحياة، لذلك فالغناء الشعبي يحتل مكانة رفيعة في نفوس كافة أفراد المجتمع سواء لمضمونه الفكري أو لارتباطه بجوانب حياتية متعددة، أو لأسلوبه الموجز وبنائه البسيط.[١] فهو نشأ بعد تراكمات عديدة من النشاطات والخبرات بحيث تضمن خلاصة المعرفة الإنسانية لهذه الجماعة ساعيا إلى تثبيت الهوية الثقافية والمكانية من خلال تكريس اهتمامه بتقويم سلوك الفرد وتوجيه أفكاره ومعتقداته وربطه بأرضه وتاريخه.[٢] فالغناء الشعبي كأحد أهم أشكال الابداع الفني الشعبي استلهم فلسفته وخصائصه من البيئة الاجتماعية التي نشأ وترعرع فيها، بحيث استطاع أن يعبر عن أحاسيس ووجدان صاحبه، وكذلك أسلوب حياته وعاداته ومعتقداته وقيمه الأخلاقية، بالموازاة مع تعبيره عن آرائه وطموحاته وتطلعاته نحو

[١] مرسي، أحمد. (١٩٧٠). الأغنية الشعبية. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. مصر. ص٢٠٥-٢٠٦.
[٢] عمران، محمد. (١٩٩٧). الدراسة العلمية للموسيقى الشعبية. دار المعرفة الجامعية. مصر. ص٥٢-٦٧.

المستقبل.[٣] وهذا يتفق وما يقوله كاجان بأن "الابداع الفني دائماً تعبير ذاتي، لأن المجتمع لا يوجد فقط حول الفنان بل وفي داخله أيضاً، ولأن شخصيته هي مجموع كل العلاقات الاجتماعية"[٤].

لذلك فدراسة الغناء الشعبي كشكل وعناصر ومفردات لغوية وموسيقية وأساليب أداء وقيمة تراثية، لا تقتصر فقط على معرفة العناصر والمفردات التي تتألف منها الصيغ المتعددة والصور المختلفة لهذا الغناء، بل تشمل أيضاً فهم الأسس التي تقوم عليها عمليات هذه الموسيقى في صياغة أشكالها مهما كانت بساطة هذه الأشكال أو تعقيدها، وهو الأمر الذي يعزز معالجة موسيقى الغناء الشعبي، ليس فقط على أنها شكل مكون من ألحان وأشعار تتضمن قيماً فنية وجمالية خالصة، بل على أنها نشاط اجتماعي يتفاعل مع باقي عناصر الثقافة. لذلك فاحتواء موسيقى الغناء الشعبي على أية مقومات فنية أو قيم تراثية خاصة، لابد أن يتأثر بنوعية ودرجة هذا التفاعل، وهو الأمر الذي يزيد بدوره من التأكيد على أن البحث في الأنماط الشعرية واللحنية والأدائية للغناء الشعبي ينبغي أن لا يقتصر على الأنماط التي تستوعب عناصر موسيقية متعددة، أو التي يُلجأ فيها إلى الإكثار من الألحان، أو حتى التي تظهر فيها أساليب لحنية وأدائية متقنة، وإنما يجب أن تشمل كل الأنماط والأساليب الموسيقية بمختلف مستوياتها، سواء التي تعتمد على تكوينات صوتية بسيطة، أو التي تعتمد على تكوينات مركبة، كما تشمل أيضاً كل صور العناصر والمفردات الصوتية وسائر المكونات الموسيقية. فمعالجة الأنماط اللحنية والأساليب الأدائية الموسيقية وفق هذه الأسس سيؤدي إلى معرفة خصائص الوحدة النوعية المميزة لموسيقى هذا الغناء من حيث الشكل والأسلوب.

فالأغنية الشعبية الفلسطينية تعتبر من أبرز ألوان التراث الشعبي الفلسطيني التي اشترك في إبداعها العديد من الأجيال سواء على مستوى الكلمة أو اللحن، لذلك فهي انعكاس حقيقي وصورة حية ودقيقة لأشكال الحياة وهمومها، فهي حصيلة المعارف التي تتناقل عبر الأجيال من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل، وبحكم موقع فلسطين الجغرافي وتركيبتها السكانية الموزعة بين المدينة والقرية والبادية، وكذلك مناخها المعتدل وطبيعتها الجغرافية ذات التضاريس الممتدة بين الجليل وصحراء النقب، حتى البحر وصولاً إلى قمة الجبل، ثم إلى أعماق الغور، أكسبت الغناء الشعبي الفلسطيني ثروة شعرية ولحنية كبيرة سواء في التراكيب النغمية أو المفردات اللغوية، فأشكال الغناء الشعبي الفلسطيني المختلفة، وأنماط ألحانه، وأساليب أدائه المتوارثة عن الأجداد تكشف عن عمق صلة هذا الغناء بالتاريخ والمكان، بالموازاة مع محافظته على هوية الإنسان الفلسطيني الثقافية والمكانية الوجودية.

---

[٣] زياد، توفيق. (١٩٩٤). صور من الأدب الشعبي الفلسطيني. مطبعة أبو رحمون. عكا. فلسطين. ص٢٧-٣٣.

[٤] المرجع السابق، ص١٢.

أولاً: أهمية الدِّراسة

تكمن أهمية هذه الدِّراسة في محاولة الباحث جمع ودراسة الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين دراسة جديدة موسوعية مبتكرة، من حيث أبعاد هذه الأغنية الموسيقية، واللغوية والدينية والجمالية، والتراثيَّة، والعلمية، والقيمية، وُصُولاً إلى سبر أعماق هذه الأغنية، وفي الوقت ذاته الحفاظ عليها من الاندثار والزوال، رداً للحملة المسعورة من العدو الغاشم الذي يخطط للقضاء على الشعب الفلسطيني وهويته، من خلال إلغاء أَسَاسَيْ وجوده وهما: الأساس الأول: وهو التراث، وأهم مكوناته الأغنية الشَّعبية، والأساس الثاني: موطن ومرابع هذا التراث، وهي فلسطين العزيزة.

ثانياً: أسباب اختيار الدراسة

من هنا كان اختيار الباحث لهذه الدِّراسة للأسباب التالية:

١. عدم وجود دراسة سابقة قبل هذه الدراسة تجمع وتدوّن الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين شعريا ولحنيا بشكل يطال كافة مناطق فلسطين التاريخية، وكذلك عدم وجود دراسة سابقة تعالج أبعاد هذه الأغنية المختلفة، وتدرسها من الدَّاخل دراسة علمية دقيقة وشاملة ومتكاملة.

٢. ثمَّ إنَّ الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين هي من أهم مكونات الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني، ومن أبرز عناصر التراث الشعبي الفلسطيني، ومن المعلوم أن التراث هو اعتراف بالشَّعبِ كشعب، وهوية، ووطن، وواقع قائم، لا يمكن تجاهله أو التغاضي عنه، بأية حال من الأحوال.

٣. ثمّ لأن الأغنية الشَّعبية بشكل عام هي تعبير شفوي يُمارسه الأفراد والجماعات منذ قديم الزَّمان، ليُعَبَّروُا عما في نفوسهم من معان، وعواطف سامية، وانفعالات صادقة، ومن خلال الأغنية يُخفف الإنسان من الضغط عليه، وفي الوقت ذاته يُوصل أفكاره للآخرين، فَيَسعدُ ويُسْعِد غيره من خلال التفاعل مع المشاعر والأحاسيس الإنسانية الجمعية، فتجمع الأغنية بين الإمتاع النفسي والجمال الحسي؛ لذا لا بُدَّ من دراستها لمعرفة الوظيفة البلاغية لها والجمالية فيها.

٤. ثمَّ لأن الأغنية الشعبيَّة هي تعبير عن الجوانب الثقافية المختلفة للإنسان منذ ولادته، وحتى مماته، فهي ترافق الإنسان في جميع أطوار حياته، وبشكل تلقائي وعفوي؛ لذا لا بُد من معرفة واستجلاء الجوانب الثقافية المتعددة التي حملتها هذه الأغنية.

٥. ثم لأن الأغنية النسائية الشعبيَّة في فلسطين، تصور الحآلة النفسية للشَّعب الفلسطيني، وتصّور البيئة الفلسطينية، والعادات والتقاليد والقيم الملازمة لهذا الشَّعب أدقَّ وأجملَ وأكملَ تصوير؛ لذا لا بُدّ من كشف كل هذه الأبعاد للناس، حتى يستفيد الناس من هذه الأغنية، ويعرفوا أسرارها وخفاياها.

٦. ثمَّ لأن الأغنية النسائية الشعبيَّة في فلسطين تُعبَّر عن الظروف الصَّعبة والقاسية التي عاشها الشعب الفلسطيني من ألمٍ وشتات وغُربة ومعاناة، وغير ذلك، وهذه الخصائص لهذه الأغنية جعلت منها سِجِلاً حافلاً للأَحداث والظواهر البارزة في المجتمع الفلسطيني قديماً وحديثاً. ليس هذا فحسب بل إن الأغنية الشعبية تُفسَّر هذه الأحداث، وتلك الظواهر الفلسطينية، فتظهر فيها العقلية الشعبية الجمعية في مواقفها تجاه الأحداث، وهكذا فإنَّ للأغنية الشعبية النسائية في فلسطين وظيفة نفسيه عاطفية، في الأفراح، والأتراح، وتقلبات الزمان، لذا لا بُدَّ من دراستها للوقوف على كنوزها الثمينة.

٧. ثمَّ لأن الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين تراث فلسطيني خالد، يتدفق بالحركة والحيوية، والعطاء كشجرة تمتد جذورها عبر الزمان لتصل إلى ماضينا العريق، وتحمل ثمار حاضرنا العربي الفلسطيني في فروعها، كما تحمل على أغصانها بشائر الخير لمستقبلنا الفلسطيني؛ ونظراً لسَعةِ الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين، وغناها وخصبها، وتعدد فنونها، وتشعب موضوعاتها ومباحثها، فسوف يقتصر الباحث على دراسة سبعة أبعاد فقط من أبعادها كما هو مُبين في فصول الدراسة.

ثالثاً: صعوبات الدراسة

لقد واجهت هذه الدراسة عدة صعوبات من أبرزها:

١. سعة الحدود المكانية والزمانية للتراث الغنائي النسائي الشعبي في فلسطين، فهو تراث ثري غني يمتد في شعاب الزمان والمكان، ومن الصعب حصره، وجمعه، وتوثيق نصوصه، ودراستها من كافة جوانبها.

٢. ندرة الدراسات السابقة في مجالات وأبعاد التراث الشعبي الفلسطيني بشكل عام، والدراسات والأبحاث الإثنوميوسيكولوجية المتخصصة في موضوع الموروث الغنائي النسائي الشعبي في فلسطين بشكل خاص.

٣. التطورات العصرية المتسارعة في الحياة اليومية، وانعكاساتها على الأغنية النسائية الشعبية؛ مما يفرض على الباحث الوعي على هذه التطورات، واستيعابها، ورصد أثرها في الأغنية النسائية الشعبية الفلسطينية.

٤. صعوبة دراسة الجانب اللغوي في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين؛ فهذا الجانب من الأغنية يمتاز بالعمق والتعقيد والسعة والامتداد، خاصة أن الباحث جمع آلاف الأبيات الشعرية الغنائية.

٥. صعوبة الدراسة الموسيقية للأغنية النسائية الشعبية في فلسطين، لما تحتويه من تنويعات لحنية ومقامية وإيقاعية متعددة تتصل بالبعد الجغرافي، خاصة وأن الباحث جمع أيضا مئات الألحان الغنائية.

رابعاً: مواجهة صعوبات الدراسة

لقد حاول الباحث قدر الإمكان السيطرة على صعوبات الدراسة من خلال الخطوات التالية:

١. تحديد جوانب مجتمع الدراسة الزمانية في حدود التسعين سنة الأخيرة من عمر الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين. ثم تحديد الجوانب المكانية للدراسة بحيث تشمل الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين كافة مناطق فلسطين التاريخية أي الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٤٨م، وكذلك المحتلة سنة ١٩٦٧م.

٢. محاولة حصر الدراسة في سبعة فصول، للتمكن من ضبطها، كما هو واضح في فصول الدراسة تيسيراً للدراسة على القرَّاء، ومحاولة التجديد في الدراسة والتنويع لإثراء الباحثين.

٣. وفي مواجهة التطورات العصرية المتسارعة في الحياة اليومية، وانعكاساتها على الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين، حاول الباحث بداية تصنيف الأغاني وربطها بالموضوعات ذات الصلة بها ربطاً مباشراً، ثم المضي بعد ذلك في تتبع الأبعاد اللغوية والدينية والموسيقية لهذه الأغنية، وغير ذلك من الأبعاد التي احتوتها الدراسة.

٤. وأمكن التغلب على صعوبات دراسة الجانبين اللغوي والموسيقي من خلال قضاء الباحث آلاف الساعات في دراسة ورصد وتحليل هذين الجانبين، وتجلياتهما لإظهارهما للعيان.

خامساً: منهج الدراسة

ولقد سار الباحث في دراسة الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين على المنهج التكاملي المتمثل فيما يلي:

١- جمع الأغاني من أفواه الشعب، من خلال مقابلات للمغنين والمغنيات، وكذلك من بعض التسجيلات الغنائية القديمة التي حصل عليها الباحث من المؤسسات والمراكز التي تُعنى بالتراث الفلسطيني، بالإضافة إلى بعض الأغنيات التي دوّنت في دراسات سابقة.

٢- ثم تدوين الأغاني كما سُمِعَتْ شعرا ولحنا في كتاب زاد على الألف صفحة، سماه الباحث "مجموع معتصم عديلة، الأغاني النسائية الشعبية في فلسطين".

٣- ثم قراءة هذه الأغاني المجموعة بعمق عدة مرات للاطلاع على مكنونات هذه الأغاني.

٤- ثم دراسة الجوانب اللحنية والإيقاعية والبنائية والأدائية لكل خط لحني لهذه الأغاني، وذلك لتحديد الخصائص الفنية الموسيقية التي تتضمنها هذه الأغاني.

٥- ثم استقراء الأغاني لمعرفة الأبعاد الفكرية الواردة فيها.

٦- ثم تخريج ما تضمَّنته هذه الأغاني من أبعاد دينية، ولغوية، وعلمية، وقيمية، وجمالية وتراثية وموسيقية، وتوثيق كتابة هذه الأغاني التي تتعلَّق بكل بعد على حده.

٧- ثمَّ تحليل ما ورد في الأغاني من الأبعاد السابقة، بعد تصنيفها.

٨- ثمَّ وضع الباحث تمهيداً لكل مدروس من أبعاد الأغنية النسائية الشعبيَّة في فلسطين في بداية كل فصل، ليسهل الوُلوج إلى الموضوع المدروس، ويسهل تصوره وتصويره للقرَّاء الكرام.

٩- ثمَّ استعان الباحث بالمصادر والمراجع المساعدة، والأبحاث ذات الصلة بالموضوع، مع توثيق المصدر المنقول عنه.

سادساً: مصادر الدِّراسة

وقد استعان الباحث بعدة مصادر في إتمام هذه الدراسة واستفائها، وأهم مصدر في الدراسة كان المصدر الشَّفاهي، حيث جُمعت الأغاني من أفواه المُغنين والمغنيَّات، بالإضافة إلى بعض التسجيلات الغنائية القديمة، وكذلك بعض الأغنيات التي دوّنت في دراسات سابقة، ومن خلال هذا المجموع قامت الدراسة، واستوت على سوقها، مع مصادر ومراجع أخرى مساعدة استخدمت في بداية كل مدروس، لتكميل الدِّراسة، وإعطائها حقها من البحث والتنقيب والتوضيح والإيضاح، والفهم والتفهيم.

سابعاً: أبواب الدراسة

تقع الدراسة في مقدمة، وخاتمة، وتوصيات، وبابين هما:

الباب الأول: في أبعاد الدراسة، وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: البعد اللغوي وفيه ثلاث اجزاء: بعد مدخل في بعض الخصائص اللغوية للأغنية النسائية الشعبية في فلسطين:

- الجزء الأول: تعريف عام بالتشبيه، والتشبيه من حيث المشبَّه.
- الجزء الثاني: التشبيه من حيث المشبَّه به، والعوالم التي استمد منها تشبيهاته، وأبرز خصائص التشبيه في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين.
- الجزء الثالث: التكرار في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين.
- الجزء الرابع: حقيقة وفروع الزغاريد الشعبية في فلسطين.

الفصل الثاني: البُعد الديني في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين.

الفصل الثالث: البُعد الوطني في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين.

الفصل الرابع: البُعد التراثي والقيمي والأخلاقي في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين.

الفصل الخامس: بُعد العلم والجمال في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين.

الباب الثاني: في الحان ونصوص الأغاني النسائية الشعبية في فلسطين، وفيه فصلان:

الفصل الاول: تدوين الخطوط اللحنية والنصوص الشعرية للأغاني النسائية الشعبية في فلسطين.

الفصل الثاني: أبرز الخصائص الموسيقية في الأغنية النسائية الشعبية في فلسطين. (ثم خطها اللحني)، كما وقام بإجراء دراسة تحليلي علمي للجوانب اللحنية والإيقاعية والبنائية والأدائية للخطوط الحنية لهذه الأغاني، وذلك لتحديد الخصائص الفنية الموسيقية التي تتضمنها هذه الأغاني)

وخلال جلسة المؤتمر الخاصة بهذه الورقة سيقوم الباحث بعرض نماذج وأمثلة مختلفة من الأغنيات التي قام بجمعها وتدوينها، والتي تظهر طريقة التدوين التي إتبعها الباحث في كتابة الخطوط اللحنية وتحليلها، وما تميزت به هذه التجربة.

ملاحظة: تناقلة العديد من وسائل الاعلام هذا الانجاز العلمي، وأرفق لكم ما كتبته صحيفة القدس العربي في لندن عن الموسوعة.

القدس العربي
AL-QUDS AL-ARABI

أ.د. معتصم عديلة من جامعة القدس ينجز موسوعة غنائية متخصصة رائدة على مستوى العالم

27.01.2018 05:33 PM

أنجز أ.د. معتصم عديلة من دائرة الموسيقى في جامعة القدس موسوعة متخصصة رائدة على مستوى العالم حملت عنوان: "موسوعة الغناء النسائي الشعبي في فلسطين – دراسة اثنوميوسيكولوجية."

وتمتاز الموسوعة في جمعها لما يقارب ١٠٠٠ نموذج غنائي نسائي شعبي اختص في مجتمع واحد، تم تدوينها شعرياً وموسيقياً، وكذلك دراستها وتحليلها من كافة أبعادها الإثنية المختلفة، وقد وقعت الموسوعة في ٢٠٠٠ صفحة.

وقال أ.د. عديلة أن هذه الدراسة الموسوعية ذات المضمون الفكري والثقافي والتاريخي، تعتبر تأصيلا للرواية الفلسطينية، وتجذيرا لها بالذاكرة، مضيفاً أنها تعتبر مرجعاً هاماً يوثق ويحفظ الهوية الثقافية للشعب الفلسطيني.

وأكد أن هذه الموسوعة جاءت انطلاقاً من أهمية الغناء الشعبي وتحديداً النسائي كجزء أصيل من التراث الفلسطيني، مشيراً إلى أن أهمية هذا الانجاز تنبع في إلقائه الضوء على جزء مهم من الهوية الثقافية الفلسطينية المهددة بالاندثار والضياع في عصر بدأت تتلاشى فيه الهويات الثقافية، وذلك من خلال جمعه وتدوينه وإجراء دراسة تحليلية عليه تعتمد الأسلوب العلمي، وبالتالي استيعابه والحفاظ عليه، ونقله للأجيال القادمة دون تشويه لتحقيق استمرارية التواصل الفكري والثقافي وتعميق الانتماء للأرض والمكان.

وأشار أ.د. عديلة إلى أن الموسوعة انجزت بعد عمل دؤوب استمر ثلاث سنوات، بدعم من مجلس البحث العلمي في وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطيني، وقد أثنى رئيس المجلس وزير التربية والتعليم العالي د. صبري صيدم على هذا الانجاز معتبراً إياه إضافة تغني المكتبة الفلسطينية بدراسات وابحاث متميزة.

ويشار إلى أن أ.د. معتصم عديلة حاصل على درجة الدكتوراة في العلوم الموسيقية الأثنية (إثنوميوسيكولوجي)، من جامعة تشايكوفسكي للفنون الموسيقية عام ١٩٩٧. وهو عضو في العديد من المجالس العلمية والبحثية العالمية، فهو عضو المجلس البريطاني للأثنوميوسيكولوجي British

- Forum for Ethnomusicology – BFE جامعة أكسفورد – بريطانيا، وعضو المجلس الدولي للموسيقى – International Music Council – IMC يونسكو- فرنسا، وعضو الجمعية الدولية للتربية الموسيقية – ISME - International Society for Music Education استراليا. له العديد من الأبحاث العلمية المنشورة في مجلات عالمية محكمة مرموقة، وقد شارك في العديد من المؤتمرات العلمية العربية والدولية، وحاصل أيضا على العديد من الجوائز والمنح البحثية. ويهتم أ.د. عديلة من الناحية البحثية بقضايا علم الاثنوميوسيكولوجي، وفلسفة التنظير الموسيقي العربي، وكذلك بالموروث الموسيقي الفلسطيني من جانب أثنوميوسيكولوجي.